لغز ثعلب الصحراء



محمود سالم

لغز ثعلب الصحراء

تأليف
محمود سالم



لغز ثعلب الصحراء

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٨ ٢٥٤١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

عندنا لغز	٧
حسنين ... حسونة	١٣
في مصيدة الشيطان	١٧
بين النوم واليقظة!	٢٣
ماذا رأت نوسة؟	٢٩
مصادفة سعيدة جدًّا	٣٥
حدث في وادي عسل	٤١
سر وادي العطشان	٤٧

عندنا لغز

كان «تختخ» يَجلس وحيدًا في حديقة الفيلا في انتظار انتهاء «زنجر» من تناول إفطاره ... مُستعدًّا للقاء المُغامرين عند «عاطف» كالمُعتاد، لم يكن قد مضى سوى يوم واحد على انتهاء لغز «الكاميرا السرية» وكان ما زال مشغولًا باللغز ... لقد استطاع أن يعرف الجاسوس ... وأن يعرف كيف كان يُصوِّر المُستندات السرِّية ... ووضعت جهات الأمن يدها على كل شيء، ولكنَّ شيئًا واحدًا حدث جعل نهاية المغامرة ناقصة ... فقد هرب الجاسوس «مايزر» ... واختفى كأنه ذرَّة في الهواء ... وقال المفتش «سامي» تعليقًا على ما حدث ... لقد قمت بعمل عظيم ... فقد أوقفت عملية التجسُّس، وهذا ما كان يُهمُّنا ... أما القبض على «مايزر» فهو مسألة وقت ... إنه لن يُفلت من أيدينا مطلقًا ... ولما كنت أنت يا «توفيق» أكثر واحد يَعرفه وقد عاشرته بضعة أيام وعرفت عاداته ... فمن المهم جدًّا أن تساعدنا ... وسوف أتصل بك بعد التحقيق في الموضوع ... والاطِّلاع على جميع المستندات ... وبالمناسبة ... تستطيع الآن أن تَحكي لبقية المغامرين كل شيء عن هذه المُغامَرة.

واتَّفق «تختخ» مع المُغامرين على مقابلتهم هذا الصباح ... ليتحدَّث إليهم عن شخصية «مايزر» وكيف اكتشفه ... وكان يُمسك بيديه دفتر مُذكِّراته الصغير الذي يكتب فيه تفاصيل مغامراته ليعود إليها في أيِّ وقت ... وكان قد كتب ثلاث صفحات عن شخصية «مايزر»، ويودُّ لو يستكملها بجملة: وتمَّ القبض عليه ...

وظهر «زنجر» قادمًا من مأواه في أقصى الحديقة ... كان يَلعَق فمه بعد أن تناول إفطارًا دسمًا ... وكان على استعدادٍ للانطلاق ... وقفز «تختخ» إلى دراجته ... وقفز خلفه «زنجر» وانطلقا إلى منزل «عاطف».

كان المغامرون جميعًا في الحديقة ... وقد استعدوا بكل الشوق إلى الاستماع إلى المغامر السَّمين الذي ركن دراجته عند باب الحديقة، ودخل يتبعه الكلب «زنجر» الذي ربَض تحت قدمي «لوزة» ... كالمعتاد؛ تعبيرًا عن حبه الكبير لها.

قال «عاطف» مُداعبًا «تختخ»: أنت الآن نجم الموسم!

ابتسم «تختخ»، وأضافت «نوسة»: لقد قام بعمل وطني عظيم!

لوزة: ولكنَّه لم يُشركنا معه!

تختخ: آسف جدًّا ... لقد طلب منِّي المفتش «سامي» إبقاء الأمر سرًّا ... خوفًا عليكم من عصابة الجواسيس هذه ... ولكن المرحلة القادمة ستحتاج إلينا جميعًا.

صاحت «لوزة» بابتهاج: سنَشترك معك؟!

تختخ: طبعًا ... وقد اشتركتم في اللغز الماضي ... ألم تدعوني أهرب من الشاويش «فرقع» في وقت حرج جدًّا من المغامرة؟!

لوزة: ولكن هذا لا يكفي!

تختخ: في المغامرة القادمة سنشترك كلنا ... والآن أحدِّثكم عن شخصية «مايزر». إنه شخصية فريدة ... وكعادة الجواسيس في منتهى الحذر ...

ولم يكد «تختخ» يَنتهي من آخر كلمة حتى دقَّ جرس التليفون الذي يضعونه دائمًا بجوارهم ... وكان المتحدِّث هو المفتش «سامي» الذي تبادل الحديث مع المغامرين جميعًا ... وعندما كان يتحدث إلى «تختخ» قال له: أَضِفْ إلى معلوماتك شيئًا جديدًا عن «مايزر»؛ إنه يجيد الحديث باللغة العربية سواء الفصحى أو الدَّارجة.

تختخ: مُدهِش جدًّا ... إنه لم يخطئ مرةً واحدة وتحدث بها!

المفتش: لقد حصلنا على بعض المعلومات من زميله الذي أُصيب في الحادث ... ولكن حالته لا تسمح له بحديث طويل ... وكلَّما سمعت شيئًا سوف أتحدث إليك.

تختخ: ألم تُكوِّنوا فكرة عن اتجاه «مايزر» بعد هربه؟!

المفتش: هناك احتمالات كثيرة ... ولكن من المؤكد أنه لم يُغادر مصر حتى الآن؛ فالمطارات والموانئ ... وكل مكان يُمكن أن يَنفذ منه مُحاصَر ... فهو في مصر ... ونحن نُرجِّح لأنه يجيد الحديث بالعربية أن يتمكَّن من الاختفاء طويلًا ... فهو كما تَعرف جاسوس داهية!

تختخ: هل تسرَّبت معلومات كثيرة عن طريقه؟

المفتش: لحسنِ الحظ وجدنا أغلب الأفلام.

تختخ: إنني والمغامرون سوف نَضع بعض التصورات.

المفتش: شكرًا لكم ... وأرجو أن أسمع منكم قريبًا ... وكاد المفتش أن يضع السماعة، ولكنه أضاف: اسمع يا «توفيق» ... قد يُهمك أن تعلم أننا وجدنا في الكوخ بعض الأشياء الغريبة ... منها جلباب مما يَلبسه أولاد البلد، وشبشب قديم من البلاستيك الرخيص ... وبعض النقود المعدنية والفضية في كوز من الصفيح.

تختخ: شيء غريب!

المفتش: نعم ... غريب فعلًا! ... ونحن نقوم ببعض التحريات.

تختخ: أرجو أن أعرف أولًا بأول كل ما تصلون إليه.

المفتش: بالتأكيد يا «توفيق» ... إلى اللقاء!

ووضع «تختخ» سماعة التليفون والتفتَ إلى الأصدقاء، وبدأ من جديد يروي لهم مغامرته مع الجاسوس «مايزر» وكيف تمَّ اكتشافه ... وتمكُّنه من الهرب ... ثمَّ ما وجده المفتش «سامي» ورجاله في الكوخ الذي بحديقة الفيلا.

قالت «لوزة»: هل لاحظتم أن «مايزر» كان يَخرج كل مساء؟

نوسة: نعم ... إنها ملاحظة هامة!

محب: لعلَّه كان يعمل بعد الظهر.

عاطف: كلنا نعلم أن من عادة الأوربيين أنهم لا يعملون في المساء ... ففي أوروبا وأمريكا تُغلق جميع المكاتب والمحلات أبوابها في الخامسة أو السادسة ثم لا تفتح بعد ذلك مطلقًا.

نوسة: ولكن لسنا في أمريكا ولا أوربا ... إننا في مصر!

تختخ: على كل حال يُمكن أن نسأل المفتش عمَّا إذا كانت مكاتب التصميمات السرية تفتح بعد الظهر أو لا؟

عاطف: المُهم يا «لوزة» لماذا السؤال؟

لوزة: بسبب بسيط ... إننا يجب أن نعلم إلى أين كان «مايزر» يذهب بعد الظهر ويبقى في الخارج حتى ساعة متأخِّرة من الليل ... فحسب رواية «تختخ» كان «مايزر» يعود بعد أن يَنام «تختخ» أي بعد العاشرة، وربما بعد مُنتصَف الليل!

تختخ: هذه نقطة مهمة ... فلو علمْنا أين كان يُمضي «مايزر» وقته بعد الظهر؛ لأمكن الإمساك ببعض الخيوط.

نوسة: فعلًا ... ربما كان يَلتقي بالرجل الذي يُسلِّمه الأفلام لإرسالها إلى الخارج.

تختخ: يجب إذن أن نتَّصل بالمفتِّش «سامي» فورًا ... لعله يحصل من الجاسوس الآخر الذي جُرح في الحادث على معلومات عن هذا الموضوع.

واتصل «تختخ» بالمفتش «سامي»، وقال المفتش: هذا ما خطر لي أيضًا من الاستماع إليك ... وأمامي الآن التحقيق الذي قام به وكيل النيابة ... لقد وصلَ إليَّ توًّا ... وسأقرأ لك ما جاء بأقوال الجاسوس الذي قبضْنا عليه ... إنه يقول بخصوص خروج «مايزر» بعد الظهر ما يلي:

> لقد كنتُ أَحضُر إلى «مايزر» كل مساء لأرى ما عنده من أفلام ... وكنَّا نقوم بتحميضها، ثم التأكُّد من صلاحيتها، وأقوم بالذهاب إلى شقَّتي حيث أقوم بتقسيم الأفلام إلى قطع صغيرة «سلايدز»، ثم أضع كل مجموعة في مظروف عادي جدًّا وأرسلها بالبريد ... وكانت هذه طريقة بسيطة ولكن مؤكدة المفعول؛ لأن المظروف لم يكن يُثير أي اهتمام.

وصمت المفتش لحظات ثم مضى يقرأ:

> وعندما أُصبت ... قال «مايزر» إنه سيتولَّى الإرسال بنفسه ... وقد كان يخرج كل مساء إلى أحد الأحياء الشعبية كأنه سائح يتفرَّج على القاهرة القديمة، وهناك كان يقوم بإرسال الخطابات ... ولا أدري أكان يقوم بها وحده؟ أم كان هناك مَن يُساعدُه؟

تختخ: ما رأيك في الربط بين الأحياء الشعبية والملابس البلدية التي وجدتها في الكوخ؟

المفتش: هذا منطقي جدًّا!

تختخ: معنى هذا أن «مايزر» كان يلبس الملابس البلدية أحيانًا في الحي الشعبي، وأحيانًا كان يذهب كسائح.

المفتش: معقول!

تختخ: وقد فهمنا الآن لماذا كان يذهب كسائح في الأحياء الشعبية ... لقد كان يرسل خطاباته من هناك ... ولكن لماذا كان يلبس الملابس الشعبية؟!

المفتش: هذا هو السؤال الذي يجب أن نبحث عن إجابته.

تختخ: إنني أعتقد أن «مايزر» سيذهب إلى الأماكن التي يعرفها ... حيث يستطيع الاختفاء والحركة بحريَّة ... خاصة أنه يجيد اللهجة العربية الدارجة.

المفتش: هذه كلها استنتاجات مضبوطة!

تختخ: هل تسمح للمغامرين الخمسة بمساعدة رجال الأمن في البحث عن «مايزر»؟

المفتش: بالتأكيد ... إن هذا يسعدنا؛ لأنك الشخص الوحيد الذي عايش «مايزر» ويمكن أن يتعرف عليه سريعًا.

تختخ: أشكرك يا سيادة المفتش ... وأرجو أن ترسل لنا مجموعة صور لهذا الجاسوس الداهية.

المفتش: ستصلُ إليكم هذه الصور آخر اليوم في منزل «عاطف».

تختخ: شكرًا لك يا سيدي ... وإلى اللقاء!

وضع «تختخ» السماعة ونظر إلى المغامرين ... كانوا يتتبعون المكالمة كلمة كلمة ... ودون أن يَروي لهم «تختخ» ما قاله المفتش «سامي» ... كانوا قد فهموا جميعًا أنَّ أمامهم مغامرة شيقة ... وأنهم سيبدءون العمل من الصباح بعد أن يَتسلَّموا صور الجاسوس ... وقالت «لوزة»: عندنا لغز!

وضحك المغامرون جميعًا ... فقد كانت هذه هي صيحتها المشهورة ...

حسنين ... حسونة

كانت الاستنتاجات التي توصَّل إليها الأصدقاء مع المفتش «سامي» كافية لوضع خطة عمل لمطاردة «مايزر» ... فما دام الجاسوس الداهية يحتفظ بملابس أولاد البلد ... ويتردد على الأحياء الشعبية ... فالأماكن التي يجب البحث عنه فيها هي الأحياء الشعبية في القاهرة مثل باب الشعرية ... وحي الحسين ... والسيدة زينب ... وبالطبع كان الأصدقاء يعرفون مقدمًا أن المهمة شاقة؛ فالبحث بين ملايين البشر الذين يَعيشُون في القاهرة ليس مهمَّة سهلة ... والبحث في الأحياء الشعبية مهمة أكثر صعوبة حيث يكثر الزحام ... ولكن لم يكن أمام الأصدقاء شيء آخر يفعلونه كما تقول «لوزة» ... أما «تختخ» فقد كان واجبه واضحًا ... باعتباره أكثر الناس معرفة ﺑ «مايزر».

وهكذا وُضعت الخطة ... يذهب «تختخ» وحده إلى حي السيدة زينب ... ويذهب «محب» و«نوسة» إلى حي الحسين ... ويذهب «عاطف» و«لوزة» إلى حي باب الشعرية ... ومع كل واحد صورة للجاسوس الداهية.

وقد بدأت المطاردة في صباح اليوم التالي ... وبالطبع كان المُغامرون الخمسة يعرفون أن قوات الشرطة وأجهزة الأمن تَشترك معهم في المطاردة ... فمن الذي يكسب الجولة؟

إنَّ أجهزة الأمن تملك الإمكانات الضخمة من سيارات وأجهزة اتِّصال ... وقدرة على الحركة والحماية ... وليس عند المُغامرين الخمسة أية تسهيلات من هذا النوع ... ولكن إحساس المغامرة والهواية والتدريب الطويل كانت عناصر إيجابية بالنسبة للمغامرين. وهكذا انطلقوا في الصباح الباكر حيث التقسيم المتفق عليه ... ركبوا قطار المعادي إلى القاهرة ... وهناك توزعوا على أن يلتقوا ساعة الظهيرة ليتناوَلوا الغداء معًا في «مطعم الركيب» بميدان السيدة «زينب» ... كان كل منهم يحمل صورة «مايزر» ويُمنِّي النفس بأن يكون هو أول من تقع عينه على الجاسوس الداهية.

وقد بدا «عاطف» و«لوزة» في حي باب الشعرية كأنَّهما تائهان ... فلم يَسبِق لهما إلا مرَّات قليلة أن مرَّا بهذا الحي الشعبي المُزدحِم ... وقد فوجئا بالملابس المُستورَدة وهي تنتشر على عربات الباعة ... وبالضَّجة الشديدة بالمقارنة بحي المعادي الهادئ.

ظلَّا يمشيان ... وكلما شاهدا شخصًا فيه ملامح من الصورة أسرعا إليه وأخذا يحدِّقان فيه ... وقد تكرر ذلك بضع مرات ... وذات مرة أسرعا خلف شخص طويل القامة نحيف، ويلبس الملابس البلدية ونظارة طبية سوداء ... ولكنه دخل أحد البيوت قبل أن يتفحَّصاه جيدًا ... ولم يتردَّدا في أخذ عنوان البيت، ثمَّ تابعا جولتهما في الحي.

في الوقت نفسه كانت «نوسة» و«محب» يقومان بنفس العمل في حي الحسين ... وقد قابلا عددًا من الأشخاص يَنطبِق عليهم نفس المواصفات التي لـ «مايزر» مع اختلافات طفيفة ... وكذلك اللون، فـ «مايزر» أبيض وهؤلاء لونهم أسمر ... وهذا فارق أساسي في العملية ... والشيء المُدهش أنهما قابلا شخصًا يشبه «مايزر» فعلًا ... ولكن لا يلبس نظارة ... ويقوم بمسح الأحذية في المقاهي.

وفي الوقت نفسه أيضًا كان «تختخ» يبحث في حي السيدة «زينب» ولم يكن في حاجة إلى الشك في أحد ... ولم يكن مُحتاجًا لصورة برغم أنه كان يحملها في جيبه ... فقد كانت صورة «مايزر» وشخصيته وطريقة حركاته ملتصقة في ذهن «تختخ» جيدًا ... لهذا فقد كان يستطيع فرز الأشخاص ولا يُطاردهم كما يفعل «محب» و«نوسة» أو «عاطف» و«لوزة».

استمرت ساعات البحث المُضنية حتى أحسَّ الجميع بالتعب ... وجلس «تختخ» في مقهًى صغير بجوار «مطعم الركيب» ... وتناوَل كوبًا من المثلَّجات ... وفي الساعة الواحدة والنصف ظهر «محب» و«نوسة» نازِلَيْن من الترام ... وبعد لحظات ظهر «عاطف» و«لوزة».

كان الإرهاق باديًا على المغامرين جميعًا ... فقد قضوا ساعات طويلة يتجوَّلون ... ولم يكن أي وجه من وجوهِهم يُنبئ بأيِّ توفيق ... لقد اتضح أن المهمة صعبة جدًّا ... وأن البحث عن «مايزر» في الأحياء الشعبية ... يشبه البحث عن سمكة صغيرة في المحيط.

ومع هذا كانت المعلومات التي سمعها منهم «تختخ» مثار اهتمامه ... الرجل الذي اختفى فجأة في منزل بباب الشعرية ... وماسح الأحذية الطويل الأسمر ... والذي لا يلبس نظارات.

قال «تختخ»: لقد نسيتم أن «مايزر» جاسوس ... وأنه يُجيد التنكُّر ... ولونه الأبيض يُمكن إخفاؤه بسهولة ببعض الأصباغ ... وكذلك شعره الأشقر.

لوزة: ولكن يا «تختخ» مايزر كان يلبس نظارة سوداء ... وكانت عيونه زرقاء كما قلت من قبل!

تختخ: هذه أيضًا ليسَت عقبة ... فمن المُمكن بل الأغلب أنه لن يلبس النظارة وسيغير لون عينيه.

صاح «عاطف»: هذه نكتة ... كيف يغير لون عينيه؟! ... هل يمكن صبغ العيون أيضًا كما يُصبغ الشعر؟!

تختخ: ليس الأمر كذلك ... ألم تسمعوا عن العدسات الملصقة بالعيون؟! إنها رقائق رفيعة جدًّا وناعمة من البلاستيك الشفاف يُمكن أن تلتصق فوق حدقة العين فتقوم بدور النظارة ... ويمكن أن تكون بأيِّ لون من الألوان ... ولعلكم لا تعلمون أن عددًا من نجوم السينما العالمية من الذين يستعملون النظارات الطبية في حياتهم الخاصة يضعُون العدسات الملصقة بالعيون في الأفلام محافظة منهم على جمال منظرهم!

قالت «لوزة» بإعجاب: إنك قاموس متحرِّك يا «توفيق»!

تختخ: المسألة ببساطة أنني قرأت مقالًا في إحدى المجلات عن هذا الموضوع ... وفي رأيي أننا يجب أن نبحث عن رجل أسمر، وشعره أسود، وعيونه عسلية أو سوداء ... ولا يَلبس أية نظارات ... فليس من المعقول أن يتجوَّل «مايزر» في الأحياء الشعبية بشكله الأوربي الخالص وكأنه يقول: تعالوا امسكوني!

أبدى المغامرون إعجابهم بوجهة نظر «تختخ»، وقالت نوسة: إنَّ هذا صحيح! ... فهذا الجاسوس الداهية سيتنكَّر بالطريقة التي تحدَّث بها «تختخ».

تختخ: في هذه الحالة فإننا يجب أن نذهب إلى باب الشعرية للبحث عن الرجل الذي رأته «لوزة» و«عاطف»، وكذلك ماسح الأحذية الذي رأته «نوسة» و«محب».

وصمت «تختخ» لحظات ثم قال: بعد الغداء طبعًا!

علَّق «عاطف» قائلًا: إنك لا تنسى بطنَكَ العزيز مطلقًا!

تختخ: لكي تكون مُغامِرًا ممتازًا لا بد أن تأكل جيدًا.

عاطف: هذه نظرية لم أسمع عنها من قبل!

تختخ: لقد سمعتَ بها الآن ... فهيا بنا إلى المطعم!

دخلوا مطعم «الركيب» في الميدان ... وهبَّت عليهم رائحة الكباب والكفتة ولحمة الرأس ... وأخذ «تختخ» يبلع ريقه وهو يقول: اليوم يوم لحمة الرأس والكوارع.

وجلسوا إلى المائدة ... فطلب «تختخ» ما قاله ... وطلبت «نوسة» و«لوزة» كبابًا وكفتة ... وطلب «محب» و«عاطف» طبقين من المخ والكبدة المقلية ... وجاءت السلَطة الحامية،

والعيش الساخن ... وانهمك المغامرون الخمسة في الأكل وكأنهم نسوا كل شيء عن «مايزر» الجاسوس ... والمغامرة التي تُوشك أن تدقَّ أبوابهم.

بعد الطعام تناولوا بعض الفاكهة ... وبعد دفع الحساب خرجوا مرة أخرى إلى الميدان ... وفي هذه المرة اتجهوا جميعًا إلى حي باب الشعرية ... واتجهوا فورًا إلى العنوان الذي حفظته «لوزة» ... كان منزلًا قديمًا بابه من الخشب ... مظلم المدخل ... وبجواره محل لبيع الطرشي البلدي، وفي الناحية الأخرى ورشة صغيرة لصناعة الأحذية ...

تردَّد المغامرون لحظات ثم تقدَّم «تختخ» من بائع الطرشي وقال له: إننا نبحث عن الأستاذ «حسنين» الذي يَسكُن في هذا العنوان: زوى بائع الطرشي العجوز حاجبيه وقال: حسنين ... حسنين ... حسنين ... ليس في هذا المنزل من يُسمى «حسنين» وأنا في هذا المكان منذ أربعين عامًا ... أو منذ بناء المنزل لم أسمع عن ساكن بهذا الاسم هنا!

تختخ: إنه رجل رفيع طويل القامة ... أسمر اللون يَلبس نظارات سوداء.

ابتسم الرجل عن أسنان صفراء مكسرة وقال: تقصد الأستاذ حسونة؟!

ابتسم المغامرون جميعًا؛ فقد كانوا يعرفون أن اسم «حسنين» الذي اخترعه «تختخ» ليس إلَّا وسيلة للسؤال ...

قال «تختخ»: آسف ... لقد نسيت ... إن اسمه «حسونة».

قال بائع الطرشي: الأستاذ «حسونة» يسكن في الطابق الثالث مع زوجته وأولاده ... ولكنه خرج الآن.

تختخ: هل تعرفه جيدًا؟

بائع الطرشي: طبعًا ... إننا أصدقاء منذ أكثر من ثلاثين عامًا ... منذ سكن في هذا البيت ... وهو رجل طيب!

قال «تختخ»: نشكُرك كثيرًا ...

الرجل: ولكن لماذا تَسألون عنه؟

قال «تختخ» وهو ينحرف: إنَّ والدنا أرسلنا لنسأل عنه؛ لأنَّ له خدمة عنده ... سوف نُبلغ والدنا ...

ومشى «تختخ» ومعه بقية المغامرين دون أن يُكمل كلامه ... فمن المؤكَّد أن الأستاذ «حسونة» ليس هذا الجاسوس «مايزر» ما دام يسكن هذا البيت منذ ثلاثين عامًا.

ومشى الأصدقاء مُسرعين ... وقال «تختخ»: سنذهب فورًا إلى حي الحسين ... إنه أقرب الأحياء الشعبية إلى الطابع السياحي ... ثم إن ماسح الأحذية هذا يثير اهتمامي ... إنني أشعر أن ثمة شيئًا خلف هذا الرجل ... لا أدري لماذا؟ ... ولكن تعالوا نرى.

في مصيدة الشيطان

بدأت الحياة تدب بشدة في حي الحسين مع هبوط المساء ... وامتلأت الشوارع الضيقة القديمة بمئات من الناس ... وفي الساحة الكبيرة حيث يوجد مسجد «الحسين» انتشر باعة اللب والفول والترمس ... والمشعوذون الذين يرتدُون الأسمال، ويُعلِّقون عقود الخرز الملون ... والمُصلُّون من جميع أنحاء القاهرة ومصر كلها ... وارتفعت في الجو رائحة الطعمية الساخنة والكباب والكفتة ... ووقفت السيارات صفوفًا متراصَّة ... والمكتبات القديمة المنتشرة في أرجاء الميدان الواسع تمتلئ بروادها.

كانت ملاحظة «محب» عندما قال: أعتقد أن اليوم يوم غير عادي في حي الحسين ... الدنيا مزدحمة، وهي عادة مزدحمة، ولكن ليس بهذا الشكل، ولا إلى هذا لحد!

وسرعان ما عرفوا الجواب ... إنها الليلة قبل الأخيرة من مولد «الحسين» رضي الله عنه ... وقد جاء الناس من جميع أنحاء مصر ... ومن البلاد العربية للاشتراك في الذكرى العَطِرة.

وكانت هذه إجابة أحد الأشخاص الذين يَبيعون «السِّبَح» والبخور بجوار المسجد وهو يردُّ على سؤال لـ «عاطف».

وقال «تختخ»: إنَّ هذا يُصعِّب مهمَّتنا ... فهناك ألوف من البشر في هذا المكان، ومن الصعب العثور على ماسح الأحذية في هذا الزحام!

نوسة: ولكن غدًا الليلة الكبيرة ... وسيتضاعف الزحام ... وإذا انتظرنا إلى ما بعد غد ... فقد يتلاشى ماسح الأحذية ... إذا كان حقًّا هو الجاسوس «مايزر» كما تشكُّ يا «توفيق»!

نظر «تختخ» إلى ساعته وقال: الساعة الآن السادسة والنصف ... سنقضي ساعة ونصفًا في البحث عن الرجل ... وسنعاود اللقاء أمام محلِّ الفطير الذي نقف أمامه الآن بعد ساعة ونصف.

محب: أليس من الأفضل أن يبقى أحدنا هنا؟ ... حتى إذا شاهد واحدٌ منَّا ماسح الأحذية أسرع بإبلاغه ... فقد نجده بعد خمس دقائق أو عشر دقائق مثلًا ... فيجب أن يكون بيننا وسيلة اتصال.

تختخ: أوافق ... فمن سيبقى؟

لوزة: لن أكون أنا ... إنني أريد الاشتراك في المُطارَدة.

عاطف: سأبقى هنا ... وتذهب «لوزة» و«تختخ» معًا ... و«نوسة» و«محب» معًا.

تختخ: موعدنا في الساعة الثامنة.

وانطلق الأربعة: «لوزة» و«توفيق» معًا ... و«نوسة» و«محب» معًا ... واختار «عاطف» كرسيًّا عند بائع الفطير، وطلب فطيرة صغيرة وجلس.

كان كلٌّ منهم يحمل صورة لـ «مايزر» ... وقد حذَّرهم «تختخ» من أن الرجل يُمكن أن يتنكَّر ... ولكن مهما تنكر فلن يستطيع التخلص من ملامحه الأساسية ... وهكذا ... فإذا كان ماسح الأحذية المجهول هو «مايزر» فسوف يُمكن التعرف عليه ... ولكن المسألة لم تكن هكذا ... فعندما كان المغامرون الخمسة مجتمعين أمام بائع الفطير يتحدَّثون ويضعون خططهم ... كانت هناك عيون خبيثة تراقبهم عن قُرب ... عيون مُمتلئة بالشر والرغبة في الانتقام ... كانت عيون «مايزر».

كان الجاسوس هو فعلًا ماسح الأحذية كما تصوَّر «محب» و«نوسة»، وكان يقوم بمسح الأحذية في المنطقة المحيطة بمسجد الحسين ... وتشاء المصادفة أن يكون غير بعيد من اجتماع المغامرين الخمسة، ويرى «تختخ» ... وبرغم أن «تختخ» كان يعمل في منزل «مايزر» مُتنكِّرًا — في لغز «الكاميرا السحرية» — فإن الجاسوس الداهية عرفه على الفور ... وعرف فيه الولد الذي حطَّم خططه ... ووضع رجال الأمن في أثرِه ... وجعله مُطارَدًا مُختفيًا خائفًا ... وأحسَّ بالرغبة في الانتقام تملأ نفسه ... نعم ... قرَّر «مايزر» أن يَنتقم ... وراقب «تختخ» هو و«لوزة» وهما يسيران معًا ... واستنتج الجاسوس المُخيف كل شيء ... إنَّ هؤلاء الأولاد الخمسة يعملون معًا ... وهذا التقسيم: اثنان ... واثنان ... وواحد ينتظر، معناه أن هناك خطة محدَّدة يُنفِّذونها ... إنهم يقتفون أثره ... ولا بد أنهم يستريبون في وجودِه بهذا الحي ... وأنهم يبحثون عنه.

كان «مايزر» يقف خلف كشك السجاير المواجه لمحلِّ الفطير ... وشاهد كل شيء وقرر أن ينتقم.

انتظر حتى تحرَّك «تختخ» وبجواره «لوزة» ودخلا إلى ناحية مقهى الفيشاوي وسار خلفها من بعيد ... وهو ينتظر المكان المناسب والوقت المناسب ليبدأ تنفيذ خطته التي استطاع عقله الشيطاني أن يضعها في ثوانٍ قليلة.

دخل «تختخ» و«لوزة» إلى مقهى الفيشاوي من ناحية شارع الصاغة ... وأسرع «مايزر» يدخل من الناحية المقابلة ... ناحية حي الحسين ... وكان لا بد أن يَلتقيا عند الجزء الخلفي كما قدر «مايزر»، وهذا ما حدث فعلًا ... وفجأة أمسكت «لوزة» بذراع «تختخ» بشدة ... لقد شاهدت «مايزر» وانحنى «تختخ» عليها يسأل: لماذا تُمسكين يدي بهذه الشدة؟! قالت «لوزة» هامسة: الرجل أمامنا تمامًا.

ورفع «تختخ» عينَيه ... وشاهدَ «مايزر» ... وبرغم كل وسائل التخفِّي الذي صنعها «مايزر» ببراعة ... فإنَّ «تختخ» عرفه على الفور ... من طوله ... من حجم رأسه ... من الانحناءة الخفيفة في كتفه ... ودقَّ قلب «تختخ» سريعًا ... إن ماسح الأحذية الذي يقف أمامه يدقُّ على صندوقه الصغير هو بلا شك الجاسوس الداهية «مايزر» ... وتدفَّقَت الدماء في رأسه ... لا بد من التصرف سريعًا ... ولكن «مايزر» كان أسرع منه ... فقد انحرف عن الأضواء ودخل في الحارة الضيقة المجاورة للمقهى ...

وأسرع «تختخ» و«لوزة» خلفه ... وهذا ما كان «مايزر» يريده بالضبط ... فقد شاهد المغامرَين وهما ينحرفان خلفه ... فسار مُسرعًا وأحسَّ بهما يتبعانه ... وأحسَّ بأن خطته قد نجحت، وأنه على وشك الانتقام من هذا الولد السَّمين الذي أوقع به، وهو الجاسوس الداهية الذي دوَّخ رجال الأمن في جميع أنحاء العالم.

أخذ «مايزر» يسير بنشاط في الحواري المُظلمة التي اختارها ... و«تختخ» و«لوزة» خلفه ... كان ذهنه يعمل بنشاط ... وكذلك كان ذهن «تختخ»، شيء ما في نفسه جعله يستريب من هذه المغامرة ... ولكن لا بد من المضيِّ فيها ...

وصعد «مايزر» السلالم المتآكلة في حي الباطنية ... الحي المُخيف الذي يأوي إليه تجار المخدرات ... ويخشى الشخص العادي أن يسير فيه نهارًا ... واشتدَّت الظلمة ... وأحسَّ «تختخ» بنوع من الخطر ... خاصة أن «لوزة» معه ... وأخذت المطاردة تزداد سرعة ومرارة ... وبدأ عدد المارة يقل تدريجيًّا ... وازداد الشعور بالخطر ... وصعد «مايزر» مجموعة أخرى من السلالم ... وأصبح الثلاثة كأنهم بمعزل عن المدينة ... وعن حيِّ الحسين المزدحم ... فلم تَعُد تُسمع أصوات مكبرات الصوت إلَّا من بُعد سحيق ... ولم تَعُد أضواء الميدان تظهر على الإطلاق ... ولم تَعُد هناك سوى مجموعة من المنازل القديمة

المُتهاوية ... ومال «تختخ» على «لوزة» وقال هامسًا: إذا دخل «مايزر» أي منزل من هذه المنازل ... فأسرعي بالعودة إلى الميدان.

لوزة: إنني سأضلُّ الطريق ...

تختخ: اتبعي الأصوات البعيدة ... أصوات مكبرات الصوت ... إنها ستقودك إلى الميدان ... واتصلوا بالمفتش «سامي».

ولم تمضِ سوى لحظات على هذا الحديث حتى وقف «مايزر» أمام منزل قديم، ثم دقَّ الباب دقات معينة ... وفُتح الباب على الفور ... واندفع شريط ضئيل من الضوء وأخرج «تختخ» منديله بسرعة وقال للوزة: سأضع هذا المنديل بين الأحجار لتعرفي المنزل.

واختفت «لوزة» في الظلام وقلبها يرتجف ... لقد أحسَّت أنها تركت «تختخ» بين أنياب الأسد في هذا المكان المنعزل ... ولكنها أدركت في الوقت نفسه أن وجودها سيكون عبئًا عليه ... ولن يكون له أدنى فائدة، بل على العكس عودتها لبقية المغامرين هي الأمل الوحيد لإنقاذ «تختخ» ...

أخذت «لوزة» تجري وهي ترهف أذنيها ناحية أصوات مكبرات الصوت البعيدة ... كان الظلام حالكًا ... ولا تستطيع أن تتذكر الطرق الملتوية التي أتوا منها ... ولكنها كانت تدرك أن مصير «تختخ» ومصير المغامرة كلها مُعلَّق في رقبتها الآن ... وأن عليها أن تبذل المستحيل لتصل إلى بقية المغامرين ... وإلى المفتش «سامي».

دخل «مايزر» وأغلق الباب خلفه ... وأسرع «تختخ» يقترب من باب المنزل، وأخذ يتحسَّس الواجهة الحجرية المتآكلة ... ثم دسَّ منديله في أحد الشقوق الكثيرة التي في الحائط، واستدار ليقف عند أقرب منزل يستطيع منه أن يُراقب المنزل الذي دخله «مايزر» ... ولكنه لم يكد يخطو ثلاث خطوات حتى أحسَّ بيد قوية توضع على فمه، ويدٍ أخرى تَلوي ذراعه اليُمنى حتى تكاد تحطمها ... وإذا به يُدفع إلى داخل منزل «مايزر» دون أن يتمكَّن من الدفاع عن نفسه.

أُغلق الباب ... ووجد «تختخ» نفسه في صالة المنزل ... كل شيء حوله كان قديمًا وحقيرًا ... الجدران ... الأثاث ... حتى لمبة النور كانت مُغطَّاة بالأتربة ... وبدا واضحًا أن المنزل لم يستخدم منذ وقت طويل.

أمامه كان يقف «مايزر» في ثياب التنكُّر لماسح الأحذية ... وقد وقف مباعدًا ما بين ساقيه ... وتحت الجلباب القديم كان ثمة انتفاخ على الجانب يؤكد وجود مسدَّس ضخم ... ونظر «مايزر» إلى «تختخ» طويلًا ... ثم قال للرجل الذي كان يُكمِّم «تختخ» ويلوي ذراعه، اتركه الآن.

وترك الرجل «تختخ» الذي أخذ يُدلِّك ذراعه التي كادت تتحطم، وقال «مايزر»: أين الفتاة الصغيرة التي كانت معك؟

لم يردَّ «تختخ» فقال «مايزر» بصوت تفوح منه رائحة الخطر: من الأفضل أن ترد كلما سألتك ... ففي ثانية واحدة يمكن أن أقضي عليك دون أن يعرف مخلوق في هذا العالم مَنْ الذي فعلها!

تختخ: إنَّ الفتاة التي كانت معي تعرفك ... وتعرفُ من أنت ... وإذا قتلتَني فسوف تُطاردك كل قوى الأمن في مصر ... ولن تستطيع أن تخرج حيًّا من بلادي.

سكت «مايزر» لحظات ... والتفت «تختخ» ليرى الرجل الذي كان يُمسكه ... وقعت عينه على أقبح وجه رآه في حياته ... كان رجلًا يشبه الغوريلا ... طويل الذراعين مثلها ... قد استطال شعر ذقنه وشاربه ... أفطس الأنف ... صغير العينين ... كثيف الشعر ... بارز الأسنان ... غوريلا حقيقية في ثياب إنسان.

بين النوم واليقظة!

تبادل الرجلان النظرات ... لقد كان ما قاله «تختخ» صحيحًا ... وبرغم أن قوى الأمن في مصر كانت تبحث عن «مايزر» في هذه اللحظة ... فإن قُتل «تختخ» كان شيئًا آخر ...

وقال «مايزر»: يجب أن نتحرك فورًا ... من الصعب حقًّا أن تستطيع الفتاة معرفة المكان، ولكن مَنْ يدري؟!

قال الرجل الغوريلا: وماذا سنفعل به؟

مايزر: سوف أُفكِّر ... دعني أفكر لحظات ...

أخذ «مايزر» يدور في الصالة كالأسد المُحاصَر ... وكان ينظر إلى «تختخ» بين فينة وأخرى في غيظ شديد ... فهذا الولد أفسد عليه خططه ... واضطرَّه إلى تغيير كل ما فكَّر فيه ... وفي الوقت نفسه كان «تختخ» يُفكِّر فيما سيحدث له ... إن كلمة واحدة من «مايزر» تعني قتله على الفور ... وأخذ يدور بعينَيه في المكان ... كان ثمَّة حقائب مفتوحة ... بها ملابس تَصلُح للرحلات ... وبنادق ... وأدوات أخرى غريبة ... وفجأة قال «مايزر»: هل عندك حقن مُخدِّرة؟

رد الغوريلا: نعم ... ما زال عندي ثلاث حقن.

مايزر: سنُعطيه كمية من المخدِّر تكفي لتنويمه أطول مدة مُمكنة ... وسنتركه هنا.

الغوريلا: لماذا لا نقتله؟!

مايزر: إن قتله سيقلب علينا الدنيا. وكل ما نُريده منه ألَّا يستطيع الكلام حتى نبتعد مسافة كافية.

قام الغوريلا إلى إحدى الحقائب الصغيرة وفتحها ... وأخرج علبة بها بعض الأدوات الطبية فاختار أداة الحقن، ثم أخرج علبة صغيرة اختار منها حقنة وضعها في «السرنجة»، ثم أعطاها لـ «مايزر» الذي اقترب من «تختخ» وقال: اكشف ذراعك.

نظر «تختخ» حوله ... كان الرجل الغوريلا ينظر إليه بغضب ... وعيناه الصغيرتان تُطلقان الشرر ... ولم يكن أمامه إلَّا أن يُطيع ... فمدَّ يده ورفع كُمَّ قميصه وأمسك «مايزر» بذراعه ... وفي لحظة أحسَّ بوخز الحقنة في ذراعه، ولم تمضِ لحظات حتى دارت الدنيا به ... ورأى الصالة يهبط سقفها عليه حتى يكاد يَخنق أنفاسه ... وشاهد وجه الرجل الغوريلا المُخيف يقترب منه ... ثم سقط على الأرض غائبًا عن الوعي.

في هذه الأثناء كانت «لوزة» تجري عبر الحواري الضيقة المظلمة، وهي تقع وتقوم وأنفاسها اللاهثة تتردَّد في صدرها كأنها النيران ... كانت تدرك أن مصير «تختخ» يتوقف على سرعتها في الوصول إلى المغامرين والحديث إلى المفتش «سامي» ... كان صوت مكبرات الصوت يتزايد بالتدريج فتُدرك أنها تسير في الطريق الصحيح ... وعند منحنى إحدى الحواري فوجئت «لوزة» برجل يقف أمامها فجأة ... كان يرتدي ملابس مهلهلة، وقد سال لعابه وغارت نظراته ... وكان يمسك بعصا طويلة ... وصاح الرجل بها بكلمات متعثرة: أعطيني قرشًا!

ذُعرت «لوزة» وأخذت تتراجع إلى الخلف والرجل يتقدَّم منها كأنه شبح مُخيف خرج من أحشاء الظلام ... كان يُردِّد باستمرار كأنه أسطوانة مشروخة: أعطيني قرشًا ... أعطيني قرشًا!

أخذت «لوزة» تبحث في جيوبها عن نقود تعطيها له ... عندما ظهر ولد صغير واندفع إلى الرجل الذي لم يَكد يراه حتى أخذ يَجري دون سبب مفهوم ...

ووجدت «لوزة» نفسها وحيدة وقد بلغ منها الخوف والتعب أقصى حد ... فوقفت لحظات تَلتقِط أنفاسها وتُحاول التخلص من الكابوس الذي مرَّ بها ... ظلَّت مستندة إلى الحائط لحظات ثم تذكَّرت مهمَّتها فاندفعت تجري مرةً أخرى ... وأخذ صوت مكبرات الصوت يرتفع حتى وجدت نفسها — وهي لا تكاد تصدِّق — قد وصلت إلى ميدان الحسين ... بجوار المسجد بالضبط، فمشت مُسرعة في اتجاه الطرف الآخر للميدان ... كان الزحام على أشده، وقد تجمَّع الناس في تيارات بشرية تدفع بعضها دفعًا في الميدان، وحول المسجد ... ووجدت «لوزة» نفسها محشورة في هذا الخِضَم البشري المخيف، يدفعها إلى الخلف كلما تقدَّمت إلى الأمام وكادت تبكي ... لقد وصلت إلى الميدان، ولكنها لا تستطيع الوصول إلى هدفها ...

وأخذت تشقُّ طريقها جاهدة حتى وصلت إلى بائع الفطير في بداية الميدان، وشاهدت «عاطف» أولًا ... ثم شاهدت «نوسة» و«محب» قادِمَيْن في اتجاهه ... وأدركت أنهما جاءا في الموعد حسب الاتفاق ...

عندما شاهد المغامرون الثلاثة «لوزة» بدَت عليهم علامات الدهشة الشديدة ... كان وجهها يسيل عرقًا ... وشعرها مُشعثًا ... وثيابها ممزَّقة، وقد بدا عليها الإعياء الشديد ... وأسرعوا إليها ... وأجلسوها على كرسي.

وأحضر لها «عاطف» كوبًا من الماء، أخذت ترشفُه بسرعة وأنفاسها تتلاحق، وكان «محب» أول من تحدَّث فسألها بلهفة: ماذا حدث؟!

ردت «لوزة» متقطعة: إن «تختخ» يُطارد «مايزر» وقد تركته أمام أحد المنازل يراقب «مايزر» ... وقد طلب مني سرعة الوصول إليكم ... والتحدُّث إلى المفتش «سامي».

نوسة: هل تأكَّد «تختخ» من شخصية «مايزر»؟

لوزة: نعم ... إنه ماسح الأحذية ... فلم يكد يراه «تختخ» حتى قال إنه هو الجاسوس ... وقد تبعناه عبر الحواري الضيقة حتى دخل أحد المنازل.

عاطف: لا بد من الحديث إلى المفتِّش فورًا.

ودخل «عاطف» إلى محل الفطير يسأل عن تليفون ... ولكن لم يكن به ... وخرج يجري من مقهى إلى مطعم حتى عثَر على التليفون ... وكان الثلاثة في انتظار عودته ...

وعاد متجهِّم الوجه وقال: المفتش غير موجود ... لا في المكتب ولا في المنزل ... لقد خرج لتحقيق إحدى الحوادث المهمة.

محب: لم يبقَ إلَّا أن نتصرَّف من تلقاء أنفسنا ... إنَّ «تختخ» في خطر.

نوسة: هل تعرفين المنزل يا «لوزة»؟

لوزة: من الصعب جدًّا العودة إلى نفس المكان ... ولكني سأحاول.

أسرع المغامرون في السير ... كانت «لوزة» تنظر حولها عند كل منعطف ... وترفَع بصرها خلال الظلام الذي كان يُخيِّم على شرفات المنازل والأبواب لتتذكر الأماكن التي مرَّت بها مع «تختخ» ... وأخذوا يلفُّون ويدورون عبر الحواري والأزقة ... وكانت تنسى أحيانًا طريقها ... ثم تعود مرة أخرى ... كانت مرهقة ولكنها في الوقت نفسه تدرك أنها هي الأمل الوحيد للوصول إلى «تختخ» وإلى «مايزر».

وأخذ الظلام يتكاثَف في الطرقات الضيقة الصاعدة ... وأخطأت «لوزة» كثيرًا في التعرف على الأماكن ... والمغامرون خلفها يسيرون حيث تسير ... وأخيرًا وقفت في مكان وقالت: أظن أن هذا هو المنزل.

نوسة: لقد ذكرتِ أن «تختخ» وضع منديله الأبيض بين شقوق الأحجار في واجهة المنزل الذي كان به «مايزر».

لوزة: نعم ... حاوِلُوا أن تروا.

وتسلَّلوا حيث المنزل الذي أشارت إليه «لوزة» ... وأخذوا يُحدِّقون في الظلام مُحاولين البحث عن المنديل الأبيض ... وفجأةً قال محب: هذا هو المنديل.

لوزة: إذن هذا هو البيت.

عاطف: وماذا سنَفعل بعد ذلك؟

محب: سأدخل.

نوسة: كيف تفعل هذا؟! إنَّ «مايزر» سيَقضي عليك!

محب: إذا لم أَعُد إليكم بعد نصف ساعة ... فأسرِعُوا إلى قسم الشرطة في حي الحسين ... وأخطروا الضابط الموجود بكل ما حدث.

وفي قفزتين كان «محب» قد تسلَّق جدار المنزل ... وصعد إلى السطح في خفة القط، وأخذ يبحث عن منفذ ... وفعلًا وجد «المنور»، فتدلى منه وفي قفزة خفيفة كان داخل البيت ... وسار بحذرٍ وهو يتسمع ... لم يكن هناك أدنى صوت ... وأخرج مِصباحه الصغير وأطلق خيطًا رفيعًا من الضوء، ووجد نفسه في ساحة واسعة نسبيًّا ... وحولها نوافذ المنور المطلَّة على البيت ... وأخذ يُقدِّر مكان النوافذ حتى يعرف النافذة التي تفتح على الغرف الأمامية ... واستقرَّ رأيه على نافذة منها ...

تسلل إليها بخفة، وبخبطة خفيفة من يده انفتحت النافذة ... ووضع أذنه على الشراعة وأخذ يتسمع ... ولكن لا صوت ... واجتاز النافذة في قفزة أخرى ووجد نفسه في ظلام دامس لا يرى فيه أصبعه ... فأطلق شعاع الضوء مرةً أخرى ... كانت غرفة صغيرة بها فراش حديث الاستعمال ... وبعض الأثاث القديم ...

وسار «محب» على أطراف أصابعه حتى باب الغرفة وفتحه ... ووجد صالة مُظلمة ... وأخذ ينصت ... وخُيِّل إليه أنه يسمع نَفَسًا يتردَّد، نَفَسًا خافتًا ضعيفًا ... لشخصٍ نائم ... وأخذ يقترب من صوت الأنفاس الواهنة ... وأطلق شعاع الضوء ... وسقط على «تختخ».

ارتمى «محب» على «تختخ» وهو يَصيح: توفيق ... توفيق!

لم يكن هناك رد ... وأخذ يهزه بعنف دون أن يسمع منه كلمة واحدة ... وأسرع إلى الباب وصاح في الظلام: تعالوا!

واندفع المغامرون إلى الباب وقالت «لوزة»: ماذا حدث؟!

محب: «تختخ» وحدَه هنا ... يبدو أنه مصاب!

وأخرج كل منهم «بطاريته» الصغيرة ... وانحنوا جميعًا عليه ... كان يتنفَّس بصعوبة ... ووجهه شديد الشحوب ... واقتربت «نوسة» منه، ووضعت أنفها بجوار فمِه وشمَّت رائحة أنفاسه ... ثم قالت: إنه تحت تأثير مُخدِّر قوي!

وأخذ «عاطف» يبحث عن مفتاح النور حتى وجده ... وأضاء النور الضعيف، ثم أسرعوا جميعًا يحملون «تختخ» إلى الهواء الطَّلْق خارج الصالة المغلقة ... ثم عاد «محب» وفتَّش الشقة كلها ... لم يكن هناك أحد ... ولكن بها بقايا حبال قديمة ... ثم وجد شيئًا أخذه معه ... كانت ورقة كبيرة مطوية، وعلى الضوء الخفيف خُيِّل إليه أنها خريطة ... وخرج إلى بقية الأصدقاء ... ووجدهم بجوار «تختخ» الذي كان لا يزال واقعًا تحت تأثير المُخدِّر ... وبدا واضحًا أنه لن يفيق سريعًا.

ماذا رأت نوسة؟

تعاون الأربعة على حمل «تختخ» ... كان ثقيلًا، وكانت المهمة شاقة وهم يدورون به في الحواري المظلمة ... وكلما شاهدوا شخصًا وضعوا «تختخ» في وضع الجالس بجوار جدار ... وأخذوا قسطًا من الراحة ثم عاوَدُوا السير ... حتى إذا وصلوا إلى الميدان كانوا جميعًا يلهثُون، وأسرع «محب» إلى الميدان حيث استطاع إقناع أحد السائقين بأخذهم إلى المعادي بعد أن ادَّعى أن أحد زملائه قد فاجأتْه نوبة إغماء ... وبعد أن نقلوا «تختخ» إلى التاكسي ... انطلق بهم إلى المعادي عن طريق صلاح سالم أولًا، ثم الكوبري الجديد، وسرعان ما كانوا في المعادي.

قالت «نوسة»: هل سنذهب به إلى منزله؟

لوزة: لو شاهدوه في هذه الحالة فستكون كارثة!

نوسة: ولكن والده ووالدته ليسا هناك.

لوزة: والشغَّالة؟!

عاطف: مسألة سهلة سأبعدها عن باب الفيلا حتى تدخلوه إلى غرفته.

وصلوا إلى باب الحديقة ... كان «تختخ» لا يزال مُستغرقًا في سبات عميق ... لا يدري ما يدور حوله ... ودفع «محب» لسائق التاكسي أجرَه مع بقشيش مجزٍ ... وحمله الأربعة إلى الداخل ... كانت الساعة قد أشرفت على مُنتصَف الليل عندما مدَّدُوه في فراشه ... ونظر الأربعة بعضهم إلى بعض ... كانت عيونهم تفيض بالشكر لله؛ لأنهم أنقذوا «تختخ»، وبالتعب؛ لأنهم قضوا يومًا مُرهِقًا لم يروا مثله من قبل ... وبدون كلمة واحدة أسرعوا جميعًا عائدين إلى منازلهم ... واستغرقوا جميعًا في سبات عميق.

في التاسعة صباحًا كان المغامرون في منزل «تختخ»، فتحت لهم الشغَّالة الباب وهي تقول: إن توفيق لا يزال نائمًا!

وأسرعوا جميعًا إلى غرفته ... كان لا يزال نائمًا حقًّا ... ولكن أنفاسه كانت عادية، وقد استعاد وجهُه لونَه ... فتغيَّر من الشحوب إلى البياض.

وقالت «نوسة»: لماذا لا نُحاول إيقاظه؟!

وبدأ «محب» على الفور يهزُّه برفق وهو ينادي: توفيق ... توفيق ...

وسمعوه يغمغم وينطق بكلمات غير مفهومة ... واستمرَّ «محب» في محاولته ... وأخذ يقول له: استيقظ ... استيقظ ... إنَّ «مايزر» قد هرب.

بدأت جفونه تَختلِج ... وأخذ يتأوَّه ... ثم أخذ يحاول فتح عينيه ... وقالت «نوسة»: نريد فوطة باردة.

وأسرعت «لوزة» تُحضِر فوطة ... ثم تغمرها بماءٍ بارد من الثلاجة ... ووضعت «نوسة» الفوطة على وجهِه ... وأخذت تُربِّت بها خدَّه ... وبدأ يُحاول فتح عينيه ... وشيئًا فشيئًا نجح ... وفتح جفنين ثقيلَين وأخذ ينظر إلى أصدقائه وكأنه لا يعرفهم ... ثم قال بصوت خافت مُتحشرِج: رأسي ... رأسي! ووضع يده على رأسه ... وقالت «لوزة»: إننا هنا يا توفيق ... إننا في البيت ... استيقظ، أنا «لوزة».

وأخذ يُردِّد بعدها: لوزة ... لوزة!

وكادت الدموع تطفر من عينَي «لوزة» وهي تقول: نعم «لوزة» ... أنا «لوزة» يا «توفيق».

وثبَّت عينيه عليها وقال ببطء: لوزة ... ماذا حدث؟

لوزة: أنت تحت تأثير مخدِّر قوي ... لقد مضى عليك نحو اثنتَي عشرة ساعة!

تختخ: إن رأسي يُؤلمُني جدًّا.

لوزة: ستُصبح على ما يرام ...

عاطف: ما رأيكم في فنجان من القهوة؟

نوسة: قهوة باللبن ...

وأسرع «عاطف» يطلب من الشغَّالة «سعدية» كوبًا من القهوة باللبن.

وقاموا جميعًا بمساعدته على الجلوس في فراشه ... وأخذ ينظر إليهم بدون تركيز، ثم ابتسم أخيرًا بوهن وهو يقول: ماذا حدَث بالضبط؟

ردَّت «لوزة»: هرَب ... نعم هرب.

تختخ: يا للحظ السيِّئ ... لقد خُدعنا!

لوزة: المهم أنكَ ما زلت حيًّا.

محب: لقد كنتَ في خطر شديد ... ولم نَعثُر عليك إلَّا بعد متاعب جمة!

تختخ: إنني أتذكر الآن ... نعم ... أتذكر ... ميدان الحسين ... وماسح الأحذية!

لوزة: لقد استدرَجَنا إلى المنزل الذي كان يُقيم فيه في حي «الباطنية»، حقَنَك بمُخدِّر شديد!

أخذ «تختخ» يَشرب القهوة ويشعر بتحسُّن تدريجيٍّ ... ثم قال: هل اتصلتُم بالمفتش «سامي»؟

عاطف: أمس مساءً عندما حضرت «لوزة» وأخبرتْنا بما جرى لك حاولنا الاتصال به ... ولكنه لم يكن في المكتب أو المنزل.

تختخ: لا بد من الاتصال به حالًا.

وأخذت «نوسة» التليفون، وأدار «تختخ» رقم المفتش «سامي» في المنزل، وردَّت زوجته التي كانت تعرف «تختخ» جيدًا ... وسألها «تختخ» عنه فقالت: لقد سافر في مهمَّة منذ الصباح الباكر ... وللأسف لا أدري إلى أين ذهب ... إنه بحكم عمله لا يقول لأحد عن مكانِه.

تختخ: شكرًا لكِ ... إذا حضر فقولي له إنني اتصلتُ به وأريد أن أتحدَّث إليه في أمر مهم.

ووضع «تختخ» السماعة ... وكان بقية المغامرين ينظرون إليه في إشفاق، فبرغم أنه أصبح على ما يرام فإنه كان يضع يده بين لحظة وأخرى على رأسه متألِّمًا ...

وساعدوه على الوقوف ... حيث دخل الحمام، فأخذ «دشًّا» باردًا ... وخرج أفضل حالًا بكثير ... وطلب الإفطار ... وبعد أن تناوله أسرعوا جميعًا إلى الحديقة ... كانوا في أشد الحاجة إلى اجتماع لمناقشة ماذا سيفعلون بعد أن اختفى «مايزر» وأصبح من الصعب مطاردته؟!

جلس «تختخ» يُحيط به بقية المغامرين ... كان واضحًا أنه تحسَّن كثيرًا ... ولكن آثار الإجهاد كانت واضحة عليه وهو يروي لهم ما حدث له بعد أن تركته «لوزة» وعادت إلى ميدان الحسين ...

وفجأة توقف «تختخ» عن الحديث وهو يخبط جبهته ويقول: هناك شيء مُهمٌّ ... شيء مهم جدًّا ... لقد كانا «مايزر» والرجل الذي معه يستعدَّان لرحلة في الصحراء ...

لم يكد «تختخ» ينطق هذه الجملة حتى صاح محب: الصحراء ... لقد نسيت ... تمامًا ... الصحراء ...

قال «عاطف» باسمًا لأول مرة منذ بداية المغامرة: ماذا حدَث لكما؟! ... هل هبط عليكما وحي صحراوي في وقتٍ واحد؟!

محب: لقد وجدت خريطة عندما كنا نَنقُل «تختخ» من المنزل المهجور في حي «الباطنية»، إنني أتذكَّر ذلك ... ولكني لا أتذكَّر أين وضعت الخريطة؟!

أخذ «محب» يبحث في جيوبه ... ولكن عبثًا ... لم يكن هناك شيء ... وأحاطت به نظرات المغامرين ... ولكنه صاح: لعلها في المنزل!

ودون انتظار لكلمة واحدة قفز من مكانه ... وقفز على دراجته وانطلق في طريقه ... ونظر المغامرون بعضهم لبعض وانفجروا ضاحكين ... وقال «عاطف»: إنَّه يتصوَّر نفسه «كولمبس» والخريطة سيَكتشِف بها أمريكا.

قال «تختخ»: إن هذه الخريطة مهمة جدًّا ... لقد رأيت كما قلت لكم من الأدوات والملابس ما يؤكِّد أن «مايزر» ومن معه سيقومان برحلة في الصحراء ... والصحراء في مصر لا نهاية لها ... هناك الصحراء الغربية ... وهناك الصحراء الشرقية ... فإلى أين يتجه «مايزر»؟

نوسة: ربما لا يكون في الخريطة ما يكشف اتجاهه.

تختخ: هذا صحيح ... ولكن دعونا نأمُل أنه ترك أثرًا على الخريطة.

وساد الصمت لحظات وسألت «لوزة»: هل أنت أحسن حالًا الآن؟

رد «تختخ»: نعم ... إن الصداع يزول تدريجيًّا.

وظهر «زنجر» فجأة بين المغامرين وهو يهز ذيله ... وأسرع إلى «تختخ» وأخذ يقفز على كتفيه ... ويتشمَّم رأسه وشعره ... ويَلصِق وجهه ... وكأنه يقول له «سلامتك» ... وأخذ «تختخ» يربت ظَهْر «زنجر» بسعادة بالغة أضاءت وجهه.

ودقَّ جرس التليفون في هذه اللحظة ... ورفعَت «لوزة» السماعة واستمعت قليلًا ثم قالت: شيء عظيم!

ثم استمعت لحظة أخرى وقالت: شيء مُؤسِف!

ثم وضعت السماعة ... وقال عاطف مبتسمًا: ما هو الشيء العظيم في لحظة والمؤسف في لحظة أخرى؟!

ردَّت «لوزة» على الفور: عظيم أن يجد «محب» الخريطة ... ومؤسف أنه ليس عليها أية علامة يمكن الاستدلال بها عن الطريق الذي سلكه «مايزر»، وهذه كانت فرصتنا الأخيرة.

ساد الصمت بعد هذه المناقشة القصيرة ... وأخذ «تختخ» يربت ظهر «زنجر» وقد بدا عليه التفكير العميق ... في حين تشاغل «عاطف» بالنظر إلى عصفور صغير أخذ يقفز بين أغصان الحديقة وهو يطلق زقزقة قصيرة سريعة ... وهو يطارد شيئًا خفيًّا حاول «عاطف» عبثًا أن يعرفه ...

وسمعوا درَّاجة «محب» وهي تقف بباب الحديقة بعد أن طال انتظارهم فتطلَّع الجميع إليه ... ونزل «محب» وهو يمسك بورقة ملفوفة كالقلم ثم اقترب ووضعها على المائدة.

لم يمدَّ أحد يده لأخذ الخريطة ... ثم مدَّت «نوسة» يدها أخيرًا وأمسكت بها ثم فردتها ... كانت خريطة للوجه القبلي من الجيزة إلى أسوان ... وأخذت نوسة تتأملها قليلًا ... ثم وضعتها في اتجاه الشمس وهي تحدِّق فيها بشدة ...

واقتربت من «تختخ» وعرضت عليه الخريطة وهي تشير بأصبعها إلى عدة أماكن على الخريطة ... ونظر «تختخ» لحظات ثم قال مبتسمًا: معكِ حق ... لقد وجَدنا ما كنَّا نبحث عنه!

مصادفة سعيدة جدًّا

تقاربت رءوس المغامرين الخمسة حول الخريطة، وقال «تختخ»: لقد لاحظَت «نوسة» ملاحظة مهمَّة ... إن على جانب الصحراء الشرقة من الخريطة — وهي الواقعة بين النِّيل غربًا، والبحر الأحمر شرقًا — هنا بصمات لأصابع كانت تمرُّ على الخريطة ... ويبدو أن أحدهم كان يشرح شيئًا على الخريطة وهو يأكُل أو وهو عرقان ... فقد تركت أصابعه آثار بصمات على الخريطة.

قال «محب» مدافعًا عن نفسه: إنني لم أنظر إليها بإمعان ... فقد نظرت إليها مُسرعًا لعلَّني أجد خطوطًا أو نقطًا عليها ولكني لم أجد ... وهكذا ...

قاطعه «عاطف» ضاحكًا: لا داعي للدفاع عن قِصَر نظرك ... فهذه ليست المرة الأولى على كل حال!

صاح «محب» غاضبًا: إنني لستُ قصير النظر ... ولو أنك ...

قال «تختخ» مقاطعًا: لا داعي لتضييع الوقت في هذا النقاش العقيم ... إن كل دقيقة تمرُّ تعطي «مايزر» فرصة البُعد ... والمفتش «سامي» غير موجود، ولا بد أن نعتمد على أنفسنا، وإلَّا هرب «مايزر» إلى الأبد.

صمت الجميع، وقال «محب»: هل سنُطارده وحدنا؟!

تختخ: سنعرف أين هو ... ونستعين برجال الأمن في مطاردته والقبض عليه.

لوزة: ولكنَّنا لم نذهب من قبل إلى الصحراء الشرقية ... إنها مكان مجهول بالنسبة لنا!

تختخ: إن أحد أقاربي كان يعمل في الأبحاث الجيولوجية في هذه المناطق ... وهو باحث وصياد ممتاز ... سأتصل به الآن فهو في إجازة ... وسنطلب منه أن يشرح لنا الطريق.

وأسرع «تختخ» يحضر نوتة التليفونات، وأخذ يبحث عن اسم قريبهم الجيولوجي الشاب، وسرعان ما عثر عليه ... وأمسك التليفون وطلب النمرة، وعلى الجانب الآخر كانت سيدة تتحدث فقال لها «تختخ»: أنا توفيق يا خالتي ... وبعد أن تبادلا التحيات قال: أريد أن أتحدَّث إلى المهندس «فوزي».

ووضع يده على السماعة وقال للمغامرين: لحسنِ الحظ أنه موجود ...

وبعد لحظات كان يقول: أهلًا يا «فوزي» ... إنك لم تَزُرنا في هذه الإجازة ... وظل يستمع لحظات ثم قال: يسرُّني جدًّا أن تزورنا هذا المساء ... نعم ... أصدقائي المُغامِرُون يسعدهم كثيرًا أن يروك وأن تحكيَ لهم عن مغامراتك في الصحراء.

ومضى يستمع لحظات ثم قال: معك حق ... إنهم يُريدون منك شيئًا.

ثم استمع وهو يضحك وقال: طبعًا ... طبعًا ... أنا معهم، ووضع السماعة وقال: أظنكم استمعتم إلى حديثي معه ... إنه سيزورُنا هذا المساء ... وحتى يأتي أقترح أن تأخذوا إذنًا بالسفر ... فسوف نُحاول أن نسافر غدًا أو بعد غد.

وانفضَّ الاجتماع على أن يعودوا مرةً أخرى في السادسة لمقابلة «فوزي».

في السادسة مساءً اجتمع المغامرون مرةً أخرى ... وكانوا جميعًا يبتسمُون ... فقد حصلوا على موافقة والديهم أن يُسافرُوا ... وكان الشرط بالنسبة لـ «عاطف» و«لوزة» أن يَعُودا بعد أسبوع ...

قال «تختخ»: أسبوع يَكفي ... فإذا لم نَستطِع العثور عليه في أسبوع ... فلا بدَّ أن تتولَّى جهات الأمن هذه المهمَّة.

ولم تَمضِ لحظات حتى سمعوا صوت سيارة صغيرة تقف بالباب ... ثم وقف «تختخ» وهو يقول: هذا هو المهندس «فوزي».

أسرع «تختخ» يستقبل قريبه الشاب ... كان قصير القامة، قويَّ البنيان، مُجعَّد الشعر، لوَّحت شمس الصحراء بشرته، وكانت لعينَيه السوداوين نظرة نافذة كأنها حدُّ شفرة.

صاح «تختخ»: مرحبًا أيها الرحَّالة!

قال «فوزي»: مرحبًا أيها المُغامر!

وأخذ «تختخ» يُقدِّم له الأصدقاء فقال «فوزي»: برغم أنَّني لم أرَهَم من قبل، فإنَّني أسمع عنهم وعن مُغامراتكم معًا.

تختخ: إنَّ أمامنا مغامرة نُريد رأيك فيها …

فوزي: ليس مجرَّد رأيي … إنني على استعدادٍ للمُشاركة.

جلس «فوزي» وأسرعت الشغَّالة إليه بكوب الليمون المثلَّج، وبدأ «تختخ» يتحدَّث فقال: هناك رجل خطير، وجاسوس من أهمِّ الجواسيس اسمه «مايزر» كان يتجسَّس على بعض الأسرار الحربية في مصر.

وصمتَ لحظات ثم أضاف: واستطاعت جهات الأمن أن تُوقع بعصابته، وتُوقفَ نشاطه، ولكنه هرَب … وعندنا ما يُشبه اليقين في أنه هرب إلى الصحراء الشرقية.

قال «فوزي» مُعلِّقًا: الصحراء الشرقية؟! … إنني أعمل هناك هذه الأيام … ولكن الصحراء الشرقية واسعة … في أيِّ مكان منها يعيش؟

تختخ: لقد هرب أمس فقط … ولعله ما زال في الطريق إليها.

فوزي: وكيف عرفتم أنه هرب إلى هناك؟

تختخ: هذه الخريطة …

ومد يده بالخريطة التي وجدها «محب» … وقال فوزي: نعم … هذه هي خريطة الصحراء … ولكن لس عليها إشارة واحدة! …

قاطعه «تختخ» قائلًا: انتظر … وانظر جيدًا هنا.

وأشار بإصبعه إلى عدة أماكن فقال فوزي: هناك آثار بصمات على هذه الأماكن حقًّا!

تختخ: فقلنا إن «مايزر» ومن كان معه كانوا يُحددون مكانهم على الخريطة.

فوزي: على كل حال … كل رحلة إلى الصحراء الشرقية في المنطقة التي عليها البصمات لا بد أن تبدأ من «قنا»؛ فهي مفتاح الصحراء!

تختخ: عظيم … معنى هذا أننا عرفنا البداية.

فوزي: وهي نفس البداية التي سأبدؤها غدًا.

تختخ: غدًا؟!

فوزي: نعم … سأسافر غدًا في المساء حيث أقضي الليل في القطار … وفي الصباح … آخذ سيارة البعثة الجيولوجية التي ستكون في انتظاري لألحق بالبعثة.

قال «محب»: يا لها من مصادفة حسنة! … سنُسافر معك.

فوزي: إن هذا يسعدني حقًّا! سأذهب الآن لحجز التذاكر … هل أنتم مُتأكِّدون من حضوركم؟

تختخ: بالتأكيد … احجز لنا جميعًا … وسندفع لك عندما …

فوزي: دعكم من مسألة النقود ... إنكم ضيوفي!

أبدى المغامرون اعتراضهم في هذه الدعوة ... ولكن المهندس الشاب قال لهم: إذا أوقعتُم بـ «مايزر» فإن الحكومة المصرية ستكافئكم ... وإنني متأكِّد أن صديقكم المفتش «سامي» سيدفع جميع التكاليف ... أما إقامتكم في الصحراء فلن تُكلِّفني شيئًا ... مجرد خيمة بجوار خيمتي ... وما أكثر الخيام عندنا ... كل ما عليكم هو إحضار كمية كبيرة من الأطعمة المحفوظة وعلب العصير ولا أكثر من هذا!

وأنهى «فوزي» كوب العصير ثم وقف وقال: موعدُنا غدًا في الخامسة على محطة الجيزة ... سأكون في انتظاركم هناك.

قام المغامرون جميعًا لوداعه حتى باب السيارة ... كانوا يشعرون بالسعادة ... وعندما اختفت السيارة عن أنظارهم قالت نوسة: يا لها من مصادفة غير معقولة!

وعلَّق «عاطف» قائلًا: إنها بركات الشيخ «تختخ»!

وانفجروا جميعًا ضاحكين ... وقال «تختخ»: علينا أن نُقسِّم أنفسنا الآن، لشراء الأشياء التي سنأخذها معنا.

عاطف: نعم ... لا بد من إنشاء وزارة تموين مسئولة عن هذه الرحلة ... ضحك الأصدقاء، وقالت «لوزة»: إني أرشح «نوسة» لوزارة التموين هذه ... إنها أحسن من يُنظِّم مسائل الأكل!

محب: ومن هم وكلاء الوزارة؟

تختخ: «عاطف» و«لوزة» ... وسأتولَّى أنا و«محب» بقيَّة المسائل المتَّصلة بالرحلة.

وكادوا يَفترقون لولا أنهم شاهَدُوا الشاويش «فرقع» يظهر عند باب الحديقة على دراجته ... كأنما انشقَّت الأرض عنه!

وقف الأصدقاء وقال «محب»: كنتُ أظن أن هذه المغامرة ستمر دون أن نتعرض لمضايقات الشاويش «فرقع»!

قال عاطف: وهل يُمكن أن تمرَّ مغامرة دون أن يكون عليها بصمات الشاويش العزيز؟!

قال الشاويش وهو يبرم شاربه كعادته: إنني ... أظن ... أعتقد ... أن اجتماعكم هذا مقصود به ...

قاطعه «عاطف»: أتظنُّ أم تَعتقِد يا شاويش؟! إنَّ هناك فارقًا كبيرًا بين الظن والاعتقاد ... وعندما تستقرُّ على رأي سنقول لك ما هو المقصود بهذا الاجتماع؟

احمرَّ وجه الشاويش ... ولكن قبل أن ينطق بكلمة أخرى ظهر «زنجر» عند قدميه، وأخذ يمارس هوايته المحبَّبة في إعمال أنيابه الحادة في جورب الشاويش الذي صاح بارتياع: أبعدوا هذا الوحش عني ...

وأمسك «تختخ» بـ «زنجر» وهو يقول: لا داعي لهذا الآن يا «زنجر» ... إن الشاويش لم يأتِ في مهمة تُضايقنا!

وانطلق الشاويش مُبتعِدًا وهو يسبُّ ويلعن ... وتفرَّق الأصدقاء على أن يعاودوا الاجتماع في صباح اليوم التالي ... وقال «تختخ» موجِّهًا حديثه لـ «نوسة»: إن معكِ مدَّخرات المغامرين الخمسة ... فأعدِّي لنا ما يكفي لمدة أسبوع من المعلبات ... وزيدي الكمية قليلًا ...

عاطف: طبعًا لأنَّ كرشك العزيز يحتاج إلى كمية إضافية ...

صاح «تختخ»: لا دخل لك بكرشي ...

وانفجر الأصدقاء ضاحِكين ... وتفرَّقوا ... ومضت وزارة التموين المكوَّنة من «نوسة» و«عاطف» و«لوزة» معًا ... وقد أمسك «عاطف» بقلمٍ وورقة، وأخذ يُحدِّد الأصناف والكميات التي سيَحتاجُون إليها.

أسرع «تختخ» إلى مكتبه ... وأخذ يبحث عن كتاب عن الصحراء الشرقية ... لقد كان يُفضِّل كعادته أن يقرأ شيئًا عن أي مكان سيزوره ... وتذكَّر أن والده أوصاه أن يقرأ كتابًا صَدَر عن دار المعارف في سلسلة اقرأ عنوانه «في بلاد العبابدة»، وقال: إنه مذكِّرات جيولوجي اسمه الدكتور «سمير محمد خواسك» ... وأخذ «تختخ» يبحث عن الكتاب حتى وجده ... ولم يَكد يبدأ في قراءة الصفحات الأولى منه حتى انهمَك في قراءته تمامًا ... كان كتابًا مُمتعًا ... وفي الوقت نفسه يُقدِّم مجموعة من المعلومات الضرورية عن الحياة في الصحراء الشرقية حيث ستكون المطاردة المُثيرة خلف «مايزر»، وعندما تذكَّر «مايزر» وضع الكتاب جانبًا وهو يسأل نفسه: هل سنعثر على الجاسوس الداهية حقًّا في هذه الصحراء المترامية الأطراف؟!

حدث في وادي عسل

تحرَّك القطار من محطة الجيزة في موعده ... وأخذ يزيد من سرعته شيئًا فشيئًا حاملًا ركَّابه الكثيرين ... وبينهم المغامرون الخمسة ... والجيولوجي الشاب «فوزي» الذي كان يشرح للمغامرين طريقهم: يصل القطار إلى قنا قربَ الفجر ... وسنجد في انتظارنا السيارة الجيب التي تملكها الشركة ... وعادة ما يقودها السائق «عنتر»، وهو من أهل الصحراء ويعرف الطريق جيدًا ...

سألت «لوزة»: وهل هناك طرق ممهَّدة في الصحراء؟

فوزي: هناك الطريق الذي يربط بين «قنا» على شاطئ النيل وبين ميناء سفاجة على ساحل البحر الأحمر ... هذا هو الخط الرئيسي المرصوف ... وهناك طرق فرعية أقل أهمية ... غير ذلك ليس هناك سوى الصحراء، وبها طرق غير ممهَّدة، ولكن سير العربات والجمال عليها قد مهَّدها، أو على الأقل حدد معالمها بين الرمال اللانهائية.

وهبط الظلام، والقطار يشق طريقه بإصرار ... وجاء موعد العشاء، وذهبوا جميعًا إلى عربة الطعام حيث تناولوا عشاءهم، ثم عادوا، وأخذ «فوزي» يحكي لهم عن حياته في الصحراء ... وعن سكانها ... وتقاليدهم وعاداتهم ... كان حديثه مُسليًّا، ومُمتعًا، فالتفَّ حوله الأصدقاء مُعجبين ... ولكن حركة القطار الرتيبة سرعان ما أخذتهم إلى النوم واحدًا بعد الآخر ... وساد الصمت العربة كلها ... فقد أسلم الركاب أنفسهم لسلطان النوم الغلَّاب.

عندما بدأت تباشير الفجر ... وأخذت أجنحة الظلام تطير مرفرفة إلى بعيد، كان القطار يقترب من محطة «قنا» ... وبدأ الجميع يستيقظون، وأسرعوا إلى دورات المياه يغسلون عن وجوههم آثار النوم، ويستقبلون يومًا جديدًا.

وما كاد القطار يتوقف بعد رحلته الطويلة، حتى نزل الجميع يحملون حقائبهم، ووجدوا شابًّا شديد السمرة نحيفًا نشيطًا، يقترب منهم، فقال «فوزي»: هذا هو «عنتر» سائق السيارة …

اقترب «عنتر» منهم مُحيِّيًا المهندس «فوزي» الذي قام بالتعارُف بينه وبينهم … ومشوا إلى السيارة الجيب الواقفة في ميدان المحطة، وأدار الشاب آلاتها وبدأت تَنطلِق مبتعدةً عن المدينة، وهو يحكي للمهندس «فوزي» أخبار البعثة الجيولوجية.

سأله «تختخ»: هل أنت هنا منذ أمس؟

رد «عنتر»: نعم … لقد حضرتُ أمس في الظهيرة، وقضيت الوقت في شراء ما تحتاج إليه البعثة من طعام وغيره.

تختخ: ألم ترَ شخصية غريبة على المحطة؟

عنتر: لا … إنني لم أحضر إلى المحطة إلَّا قرب وصول قطاركم في الفجر … وقضيت أغلب الليل عند قريب لي يسكن في قنا.

تختخ: من المؤكد أن ظهور أحد الغرباء هنا يُمكن ملاحظته …

عنتر: طبعًا … خاصة عند أول الصحراء على مدخل «وادي عسل» هناك بعض رجال «العبابدة» الذين يُلاحظونَ أيَّ غريب … ولا يُمكن أن يمر هناك شخص إلَّا عرفوه!

تختخ: وهل سنمرُّ عند مدخل «وادي عسل»؟

عنتر: بالطبع؛ فهو مدخل الصحراء!

وساد الصمت، ومضت السيارة تقطع الطريق بسرعة متوسِّطة … وجلس المغامرون الخمسة وقد سرح كل منهم مع خواطره … وكانت كلها مركزة على «مايزر»، وهل يُواصل الهرب منهم؟

وصلت السيارة إلى «سفاجة»، ثم غادرتْها إلى «القصير» على ساحل البحر الأحمر، وظلَّت تسير حتى وصلت إلى تلٍّ من الأحجار المرصوصة، أشار إليها السائق «عنتر» قائلًا: هذا هو مدخل وادي عسل.

وتوقَّفَت السيارة عند تلِّ الأحجار … وظهر عدد من الوجوه السمراء، ذات العيون السوداء الطيبة، وتبادلوا هم و«عنتر» و«فوزي» التحية، وسألهم «فوزي» إذا كانوا قد شاهدوا في اليوم السابق رجلًا غريبًا طويل القامة، ومعه شخص أو أكثر، وجاء الرد الذي انتظره المغامرون الخمسة نعم … ظهر أمس … إنهما رجلان يَركبان سيارة جيب حديثة جدًّا، وقد مرَّا في الصباح الباكر.

تبادل المغامرون النظرات مع بعضهم البعض ... ثم مع «فوزي»، وشكر السائق رجال العبابدة، ثم انطلقت السيارة ... إنهم الآن خلف «مايزر»، ولكنه يسبقهم بيوم كامل، وبسيارة قوية حديثة.

وأخذ «تختخ» يفكر في المصادفات الطيبة التي وضعتهم في أعقاب «مايزر»، وبخاصة آثار البصمات على الخريطة، وسفر «فوزي» في الوقت المُناسِب ... ثم هذا السائق الذي يعرف المنطقة ... لقد كانوا محظوظين حقًّا ... المهم أن يصلُوا إلى «مايزر».

وصلوا إلى معسكر البعثة الرئيسي ... كانت الخيام مبعثرة في الوادي في شكل نصف دائرة، وفي الوسط كانت خيمة كبيرة واضح أنها خيمة المطعَم ومكان الاجتماع، وقام «فوزي» بتعريف المغامرين على زملائه الجيولوجيين ... ثم أخرج خيمة من المخزن، وقام بفردها، وساعده بعض العمال على إقامتها ... وسرعان ما أصبح للمغامرين مأوًى ظريف ...

ولكنَّ المغامرين لم يكونوا في حاجة إلى مأوى بقدر حاجتهم إلى معرفة طريق «مايزر»، وهل مرَّ بالمكان؟ ... وسرعان ما كان «فوزي» يطوف على زملائه سائلًا ... ولكن الإجابة كانت بالنفي ... وأحسَّ المغامرون أنهم خسروا المعركة مع «مايزر» مرة ثالثة ... ولكن «لوزة» التي لا تعرف اليأس قالت لهم: تعالوا نتجوَّل في منطقة العبابدة ... إنهم من سكان هذه الصحراء ... وسوف يلاحظون أي شيء فيها.

محب: من الأفضل أن نرتاح قليلًا ... إن «فوزي» سينشغل عنَّا بزملائه ومن الأفضل أن نبدأ في الصباح.

تناولوا عشاءهم، ثم استسلمُوا لنومٍ عميق ... كانت الصحراء هادئة ساكنة، وقد دخل كلٌّ منهم في كيس طويل من المشمع القوي، ونامت «لوزة» بجوار «نوسة» في جانب من الخيمة، وأسدَلتا ساترًا من القماش بينهما وبين بقية المغامرين.

استيقظ «عاطف» في الفجر ... وخرج من كيسه كما تَخرُج الفراشة من الشرنقة، وأسرع إلى الأدوات التي أحضروها، وبدأ يعدُّ الإفطار وأكواب الشاي ... وسرعان ما استيقظ بقية المغامرين ... واشتركوا في إعداد الإفطار بعد فتح علب الفول المدمس، وإخراج قطع الجبن الجاف ... وسرعان ما كانوا يتناولون إفطارًا شهيًّا، ثم يعيدون ترتيب كل شيء وينطلقون إلى حيث كانت قافلة من العبابدة تُرابط بالقرب من المعسكر، وقد أطلقت دوابَّها من إبل وماعز ترعى في المنطقة الخصبة لوادي عسل.

اقترب المغامرون من ولد صغير كان يجلس صامتًا مُراعيًا عنزاته وهي تمرح بين شجيرات الصحراء، وبادلوه التحية، ثم سأله «محب» … عما إذا كان قد شاهد أحدًا غريبًا في المنطقة.

قال الولد: لا، لم أرَ أحدًا … ولكن …

وتعلَّقت أبصار وقلوب المغامرين الخمسة بكلمة و«لكن» هذه، واستمر الولد يقول: لقد سمعت من جدي أنه شاهد شخصًا يَعرفه ومعه شخص آخر عَبَرَ أمس بعيدًا عن معسكر البعثة الجيولوجية!

محب: من هو هذا الشخص الذي يعرفه جدك؟

الولد: لا أدري … ولكن يُمكن أن تسألوه، تعالوا معي، إنه يجلس خلف هذا التل حيث يؤدي الصلاة طوال النهار … إنه رجل متدين جدًّا، وقد طعن في السن!

وقام الولد، وسار معه المغامرون الخمسة في الرمال حتى صعدوا التل، ثم هبطوا من الناحية الأخرى … وعلى الفور شاهدوا رجلًا قصيرًا نحيلًا في ملابسه البيضاء منهمكًا في الصلاة.

انتظر الأصدقاء حتى انتهى العجوز من صلاته، ثم اقتربُوا منه، وأسرع الولد الصغير يُسلِّم على العجوز، ويُقبِّل يده ثم أشار إلى المغامرين الخمسة وقال: إنهم يا جدي من مصر وأقارب المهندس «فوزي» … وقد جاءوا للبحث عن الرجل الغريب الذي حدثتنا عنه.

التفت العجوز إليهم، وشاهدوا وجهه السمح الذي يشع بالطيبة والحيوية برغم أنه كما يبدو قد تجاوز الثمانين …

قال الرجل تقصدون المستر «فرتيز»؟!

رد «تختخ»: لا يهمُّ الاسم يا سيدي … المهم الوصف!

رد العجوز: إنه طويل بشكل غير عادي … أزرق العينين أشقر الشعر.

تختخ: هل هو أعور؟

فتح العجوز فمه في دهشة وقال: كيف عرفت؟! لا يعرف هذه الحقيقة إلَّا عددٌ قليل من أصدقاء «فرتيز» … لقد فقَدها في أثناء الحرب العالمية الثانية!

خفق قلب «تختخ» سريعًا؛ فقد عرف أنه خلف «مايزر» … وقال: ومتى عرفته يا سيدي؟

رد العجوز: عرفته منذ أربعين عامًا تقريبًا … كان قد هبط من طائرته التي أصابتها المدافع … قفز بالبراشوت على شاطئ البحر الأحمر … وطلب منِّي أن أُساعده … كان

مصابًا فلم أتردد في مساعدته ... وبقي عندي أكثر من تسعة أشهر حتى شُفي تمامًا من إصابته ما عدا إصابة عينه التي فقدها إلى الأبد.

تختخ: هل عاش معك هنا؟

العجوز: نعم ... وفي مناطق أخرى من الصحراء ... وقد أحب «وادي العطشان» كثيرًا ... وحضر مرارًا في السنوات الماضية، وفي كل مرة كان يُحضر معه بعض الأجهزة التي يضعها في كهف بوادي العطشان.

تختخ: ومتى حضر آخر مرة؟

العجوز: منذ سنة تقريبًا، وأقام معنا أسبوعًا ... وكان يطلب منِّي باستمرار ألَّا أتحدث عنه إلى أحد ... كان يأتي في الليل ... ويُغادرنا في الليل دون أن يحسَّ به أحد، ولكني شعرت في المرات الأخيرة أنه يُدبِّر شيئًا غير طيب، نعم ... أحسست بذلك، وكان في نيتي أن أبلِّغ عنه السلطات المسئولة.

تختخ: لقد أصبتَ يا سيدي ... إنه جاسوس!

صاح الرجل العجوز: جاسوس ... العياذ بالله ... لقد كان دائمًا رجلًا طيبًا وهادئًا ويبعث على الاحترام!

تختخ: هكذا الجواسيس دائمًا ... إنهم يبدون كالملائكة، ولكنهم شياطين لا يتورعون عن شيء في سبيل تحقيق أهدافهم.

العجوز: ولكن مَن أنت حتى تعرف كل هذه المعلومات ... ولماذا لا تقولها لرجال الأمن حتى يقبضوا عليه؟

كان السؤال مفاجئًا ومنطقيًّا، ولكن «تختخ» لم يرتبك وقال: لقد علمتُ كل هذا في وقت قصير ... وعندما حاولت أن أتصل بمفتِّش المباحث الذي أعرفه وجدتُه مُسافرًا، وكان لا بد من الاعتماد على نفسي وعلى أصدقائي.

العجوز: ومَنْ هو مُفتِّش المباحث الذي تعرفه؟

تختخ: إنه المُفتِّش «سامي» ضابط المُباحث الشهير الذي ...

ولكن العجوز لم يَترك «تختخ» يُكمل جملته بل سارع يقول: إنني أعرفه، لقد خدم في «قنا» فترة من الوقت ... إنه رجل مُمتاز ...

تنفَّس المغامرون الصعداء ... وقال «تختخ»: هل ستُساعدنا أيها العم العزيز؟

قام الرجل العجوز واقفًا وهو يقول: طبعًا ... ما دام جاسوسًا فلا واجب له عندي ... هاتوا سيارة ... لنَذهب فورًا إلى وادي العطشان.

سر وادي العطشان

أسرع «تختخ» عائدًا ... وأخذ يبحث عن «فوزي» كالمَجنون ... ولكنه لم يجدْه، لقد خرج في بعثة استكشافية ... ولن يعود إلَّا آخر النهار ... ولم يكن في إمكان «تختخ» أو المغامِرين الخمسة عمل شيء ... وعادوا جريًا إلى الرجل العجوز، واسمه «الزبير» وقالوا له ما حدث فقال: لا بأس ... إنه لا يستطيع الخروج من وادي العطشان إلَّا إذا مرَّ بنا ... والذهاب إليه ليلًا أفضل بكثير ... دعونا نعود الآن إلى خيامنا ... ونَلتقي في المساء.

قضى المغامرون الخمسة كلَّ وقتهم في الخيمة يتحدَّثون ... كانت مُغامرتهم هذه المرة بطيئة في البداية، ولكنها أخذت تُسرع بشكل مثير ... وقال «محب»: إن في هذه المغامرة من المصادفات ما يفوق أي مغامرة أخرى!

نوسة: إنها على كل حالٍ مُصادفات طيبة ... لقد استطعنا في أقل من يومين أن نكون في إثر «مايزر»، ولم يحدث هذا من قبل في أية مغامرة أخرى!

وجاء وقت الغداء، وقاموا بإعداد وجبة سريعة من التونة والجبن والبيض المسلوق ... وقد لاحظ الجميع أن «تختخ» يأكل بشهية ... في حين كان بقية المغامرين يأكلون بنفس مصدودة ... لقد كان التوتُّر واللهفة والإثارة يصدُّون أنفسهم عن الطعام ... ولكن الفتى السمين قال: إن المغامر يجب أن يكون كالحيوانات المجترَّة يأكل ما يجده ... فهو لا يعرف متى يأكل مرةً أخرى.

وتمدَّد «تختخ» في هدوء بعد الغداء، وسرعان ما راح في سُبات عميق، وتسلل المغامرون خارجين من الخيمة ... وهم يهزُّون رءوسهم دهشةً لهذا المُغامِر المدهش.

وهبط المساء بطيئًا على الصحراء ... وأخذت كرة الشمس المتوهجة تتدحرج في الأفق مودعة يومًا طويلًا حارًّا ... وظهرت قافلة المهندسين قادمة من الشرق ... وشاهد المغامرون المهندس «فوزي» وهو يَنزل من سيارته ... فأسرعوا يُوقِظون «تختخ» الذي جلس في مكانه

ونظر إلى ساعته ثم قال: ما زال الوقت مبكرًا ... دعوه يأخذ قسطًا من الراحة ... ثم نذهب إليه.

وأخذ الأصدقاء يتمشون حول الخيمة ... حتى مرَّت ساعة أثَّرت طويلًا على أعصابهم، ثم قال «تختخ» فجأة: هيا بنا!

ذهبوا إلى خيمة المهندس «فوزي» وشرحوا له المسألة في كلمات ... فقام على الفور وهو يقول: إنكم أولاد أذكياء!

وقفَزُوا إلى السيارة، وقادها «عنتر» سريعًا حسب تعليمات «فوزي» إلى مقر الشيخ «الزبير» الذي ركب معهم ... ثم انطلقت السيارة إلى وادي العطشان حسب إرشادات الشيخ «الزبير».

لم تكن هناك طُرق بالمعنى المفهوم ... بل هي مجرد سهول منبسطة من الرمال تلفُّ وتدور حول الكثبان الرملية، ولكن السائق كان ماهرًا ... وكان يعرف طريقه ... ومضت السيارة تهتز فوق الطريق حتى هبط الظلام، وبدا القمر مُكتملًا في الأفق ينير الصحراء الواسعة ... ومضت ساعة ... ثم ساعة ... وأخيرًا نطق «الزبير» فقال: نحن نقترب الآن من وادي العطشان، ومن الكهف الذي أعدَّه «فرتيز» ...

وفكَّر «تختخ» في هذه اللحظة أنهم مُندفعُون للمطاردة دون سلاح، ومن المؤكد أن «مايزر» ومن معه يحملان أسلحة حديثة ... ومال على «محب» وهمس في أذنه بهذا، وبدا «محب» واجمًا ... إنهم يُشبهُون قطيعًا من الغزلان تُلقي بنفسها في عرين الأسد ... ولكن الوقت كان متأخرًا للتراجع ... ومعهم على كل حال المهندس «فوزي» والسائق «عنتر» وكلاهما شديدا المراس.

بدا وادي العطشان تحت ضوء القمر مجموعة من التلال تشبه الأقماع ساكنًا شاحبًا ... لا حسَّ فيه ولا حياة ... ولكن بعد أن اجتازت السيارة أحد التلال شوهدت مجموعة من الأضواء الصغيرة متناثرة في قلب الوادي، وقال «الزبير»: هذه مساكن العبابدة.

تختخ: وأين الكهف؟

الزبير: نحن في الطريق إليه.

ومضت السيارة نصف ساعة ... ثم قال «الزبير» للسائق: انتظر هنا.

توقفت السيارة ... وما كاد صوت المحرك يهدأ حتى ارتفع في السكون أصوات عرفوها على الفور، إنها عواء مجموعة كبيرة من الذئاب.

كان العواء مُخيفًا وحزينًا يتقارَب إيقاعه ويتقاطع، كأنه مأتم كبير، وقد صحَّ ما أحسَّ به الأصدقاء؛ فقد قال «الزبير»: يبدو أن شخصًا ما قد قتل ذئبًا ... وربما تكون أمًّا

... إن الذئاب من الحيوانات التي تعيش حياة أسرية صحيحة ... وموت فردٍ منها يثير أحزان الباقين.

كان السؤال الذي يلحُّ على ذهن المغامرين هو: ماذا يفعلون؟

وجاءهم الرد ... صوت طلقة رصاص مرَقَت بجوار السيارة ثم صوت يقول: ابتعدوا!

وبرغم أن الصوت كان بعيدًا، فقد عرف فيه «تختخ» على الفور صوت «مايزر» ... فقفز من السيارة وهو يقول: سلِّم نفسك يا «مايزر» ... إنَّ قوات الأمن تحيط بالمكان.

لم يكد «تختخ» ينتهي من جملته حتى مرقت بجواره رصاصة فارتمى على الأرض ... وسمع في الوقت نفسه صوت سيارة تنطلق مُسرعة فصاح «تختخ» إنه يهرب! لا بد من مطاردتِه.

وعاد إلى السيارة التي انطلقت مُسرعة في اتجاه سيارة «مايزر» التي شُوهدت تجري على الرمال، فقال «الزبير»: إنه يدخل منطقة الرمال المتحرِّكة ... إنه مجنون!

وخلف السيارة الأخرى ... وعلى ضوء القمر ... شاهد المغامرون سرب الذئاب يتبع سيارة «مايزر» وقال «الزبير» مُعلِّقًا: إنه قتل ذئبًا!

مضت سيارة «مايزر» وخلفها سيارة المغامرين ... حتى إذا أشرفوا على حافة منطقة الرمال المتحرِّكة صاح «الزبير»: توقفوا!

نزل الجميع ... ووقف المهندس «فوزي» ينظر إلى ما يدور أمامه وهو يقول: لقد صدَّق الرجل أنَّ رجال الأمن يُحيطون به.

أخذت سيارة «مايزر» تدور وتدول حول التلال ... كان واضحًا أنه يُحاول أن يضع الرمال المتحركة بينه وبين سيارة المغامرين بحيث لا تستطيع مطاردته. وقالت «نوسة»: إنَّ الذئاب لا الرمال هي التي ستُحدِّد مصيره.

ولم تكد تنتهي من جملتها حتى فوجئ الجميع بذئب من السرب الكبير يَجري وحده نحو سيارة «مايزر» ... كان ذئبًا ذكيًّا، فلم يجرِ في اتجاه مواجهة السيارة بل خلفها ... وعلَّق «الزبير» قائلًا: هذه أنثى الذئب الذي قتَلَه الجاسوس ... إنها ستنتقم له.

وفعلًا قفزت الذئبة فوق السيارة وأخذت تعوي وهي تُحاول كسر السقف بأظفارها، وكان ذلك بالطبع مستحيلًا، ولكن محاولاتها لم تضع هباءً، فقد زادت ارتباك «مايزر» الذي أخطأ في إحدى دوراته، ودخلت السيارة في الرمال المتحركة ... وشاهد المغامرون على ضوء القمر السيارة وهي تغوص تدريجيًّا ... حتى إذا وصلت الرمال إلى منتصفها فُتح بابها وقفز الرجل ... ثم فُتح الباب الآخر وقفز رجل آخر ...

قال «تختخ» إنه «مايزر» ورفيقه!

أخذ الاثنان يطلقان النار في كل اتجاه ... كانا قد أصيبا بالذعر والرعب فلم يعرفا ماذا يفعلان! ...

غاصت السيارة تمامًا في الرمال ... وأخذ «مايزر» يجري وهو يُطلق الرصاص من مدفعه الرشاش ... ووقفت الذئاب بعيدًا وهي تَعوي، وقفزت الذئبة التي كانت فوق السيارة وانضمَّت إلى سرب الذئاب التي كانت تَلمع في ضوء القمر بالشراهة والترقُّب.

حاول «تختخ» أن يُنادي «مايزر» مُحذِّرًا ... كان يريد أن يقبض عليه حيًّا ... ولكن صوته ضاع في دوي الرصاص ... وظهرَت سحابة غطَّت على المشهد ... واستمر ذلك دقائق، وسمع الجميع صوت طلقات الرصاص وهو يهدأ تدريجيًّا ... ثم ساد الصمت ولم يَعُد يُسمَع سوى عواء الذئاب الذي ارتفع بشكل وحشي مخيف ... وقالت «لوزة» بصوت مختنق: يبدو أن الذئاب قد هجمت.

وأخفت عينيها بذراعها ... وعلى ضوء القمر شاهد الجميع سرب الذئاب وهو يتجمَّع في نقطتين ... في قلب بحر الرمال ... وارتفعت الأصوات الوحشية ... وسمع الجميع صوت استغاثات ... وقال «الزبير»: لم يَعُد في الإمكان عمل شيء.

مضت دقائق، وساد الصمت إلَّا من العُواء المتقطع، وقال المهندس «فوزي»: هيا بنا ... إنها نهاية فاجعة لجاسوس.

بعد ثلاث ساعات كان المغامرون يجتمعون في خيمتهم مرة أخرى ... كانوا صامتين تمامًا ... وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا ... وقال «تختخ»: يجب ألَّا نحزن ... فهذه نهاية رجل حاول أن يُدمِّر بلادنا ... لقد حاول أن يَسرق أسرارها ... لتكون في مُتناول أعدائنا ... ولكن الله دائمًا يحمي مصر.


هنداوي